على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل السابع

اقناع الغريم

فاز الامير حسين بفوق ما كان يؤمل. فالامير بشير سجين في قلعة الجزّار، والشيخ بو غانم دفينٌ في لحده، ومعسكر بعقلين مضعضع النظام، متفرق الاعوان، وقد ضرب رجاله المذلا اسماعيل الضربة القاضية في سهول البقاع وسار متقدّماً نحو الشوف. فاوجس الامير جهجاه خوفاً من العاقبة واخذ يعقد مجالس الشورى مع الشيخ حسن جنبلاط ومشايخ العمادية. وبعد أخذ وردّ، قرّ رأيهم على ترك بعقلين مؤقتاً، والرجوع كلٌّ الى مكانه يترقبون الحوادث، ويتحيّنون الظروف، حتى اذا امكنتهم فرصة للوثوب وثبوا. ورأوا ايضاً ان يذهب الشيخ حسن الى عبيه، فينزل ضيفاً على الامير قعدان، ويجسّ عن قرب حالة الحزب الحاكم، والامير قعدان من مناصريه. فقام الشيخ منفّذاً هذه الخطة؛ ولكن الامير لم يقبله، فعاد خائباً الى وطنه واختبأ في جبل مرستي

اما المشايخ العمادية ففرّوا لاجئين الى بلاد حوران.

واما الامير عبّاس اسعد، الذي علّل نفسه مدّة قصيرة بالإمارة، فلم يرَ امامه، وقد تلاشت امانيه، الّا الخضوع لتسليم الامير الحاكم، فقدم دير القمر وجلا، فطيّب الامير حسين قلبه وأمّنه.

وكان قد وصل المتلا اسماعيل بعسكره الى الشوف بعد ان طهّر البقاع من اولئك الشذّاذ ، فقوي قلب الامير حسين وخلا له الجوّ ، فمضى في طرق الاستبداد بنظام وبرودة حتى ارهق السكّان . وكانت كبرى ظلاماته انه فرض على اهل الشوف مائة الف غرش قصاصاً لما اتاه بعضهم من الحركات الثورية ؛ بعد ان ارسل الامير حيدر احمد الى جهات المختارة لقصاص ولدَي الشيخ قاسم جنبلاط في ارزاقهم ، ومواليهم . فكان شديد الوطأة عليها.

وكان لاحد افراد الجنبلاطيين ، الشيخ بشير نجم ، ثأر على نسيبه الشيخ حسن جنبلاط . فرأى الفرصة مناسبة للانتقام ، فلم يتراجع امام التزلّف للمولى الجائر ، والدخول في خدمته متجسّساً اخبار الحزب الجنبلاطي ، مفتشاً عن مكامن رجاله عامّة ، وغريمه خاصّة . ولكن الوتر كان ابعد من ان يقع في حبائل الموتور ، فانه لم يسمع بالامر حتى وُلّي ظهره بلاد الشوف ، وذهب يتنقّل في مناور حاصبيا ، ومعاقلها الطبيعية.

على ان للضغط تخوماً اذا جاوزها حصل الانفجار ، وللظلم حدوداً اذا بلغ اليها في شعب من الشعوب اهاب به روح الثورة ، فنادى بالعصيان مهما كلّفه من التضحيات ، حتى يقلب الظلم على الظالم ، ويردّ البغي على الباغي . وهذا ما بدا في لبنان على اثر ذاك الاستبداد . فان الامير لم يكن يقمع الفتنة في المناصف حتى تهيج في المراقيب ، ولم يكن يخمد الثورة في الشوف حتى تشبّ في المتن . وعبثاً كان يُرسل الامير قعدان وبرجس باز يتنقلان في البلاد ، فيعدان تارة ويتوعّدان أخرى ، ذاهبَين من بعقلين الى حمّانا ، موفدَين الرسل الى حوران وحاصبيا لمخابرة العامية حيناً والشيخ حسن جنبلاط حيناً آخر.

* * *

ظلّ لبنان على هذه الحالة من الاضطراب حتى رجوع الجزّار من حج سنة ١٧٩٥ ، فلاقته الوفود الكثيرة من بلاد الشوف ، وبلاد جبيل ، وكل افرادها يشكون من ظلم الاميرَين وبرجس باز ، ويرجون من عطفه ان يُعيد اليهم مولاهم السابق ، الامير بشير.

وكان الجزّار قد ابتزّ كل ما يؤمّل ابتزازه من اموال ابناء الامير يوسف،

وطمع في ان الامير بشير يزيد على منافسيه في تقديم « الميري » ، فلم يرَ من بأس في قبول شكاوى اللبنانيين . وان من درس تاريخ الجزّار ، وعرف ما كان عليه من النهم والحرص ، وقلّة الاهتمام بالمواعيد والمواثيق ، وسرعة التقلّب في الاحكام ، وشدّة الملل من مساعديه اذا لم يبقَ لهم ما يشبعون به جشعه ؛ لا يستغرب هذا الانقلاب الذي يعادل انقلابه السابق مفاجأةً وسرعة. وبلمحة طرف ، تحوّل اصدقاء الامس الى مغضوبي اليوم ، وسجين دياس عكاً الى امير لبنان.

فرجع اللبنانيون على اعقابهم فرحين بقرب الخلاص. بينما كان الامير حسين، وقد علم بوعود الجزّار وادرك ما ستؤول اليه الحالة ، يجمع امواله ويترك دير القمر هاربـاً الى بلاد جبيل صحبة مدبّره برجس باز ، ومن بقي معه من الاعوان وفي مقدّمتهم الامير قعدان ، والامير سلمان سيد احمد ، وبعض المشايخ النكدية.

اما الجزّار فلمّا وصل الى عكا ، اسرع بطلب الامير بشير ، فأخرج مع رفاقه من دياسهم المظلم الى النور ، وهم حائرون بالغاية من هذا الطلب المستعجل . وما اشدّ ما كانت حيرة الامير اذ رأى الجزّار يخلع عليه خلعة الرضى ، ويرجع له ولرفاقه خيلهم واسلحتهم ، وهو يبشّ لهم ويظهر لمرآهم كل الارتياح.

ولم تكن هذه الفرصة لتفوت الامير ، فشاء الاستفادة منها ، والاستفادة عاجلاً . فتقدّم شاكراً المولى ، طالباً منهُ الولاية ، متعهداً له بدفع ثمانمائة الف غرش على ست عشرة سنة . واذ رأى الجزّار لا يزال متردّداً في القبول كأنه غير واثق بقبض ذاك المبلغ العظيم ، عمد الامير الى طريقة الرهن ، فوعد الجزّار بان يُرسل اليه عدّة رهائن منها ولداه الاثنان وزوجته . ثم وعد الامير حسن بارسال ولده ، ووعد الشيخ بشير بإرسال زوجته.

وبينما الجزّار يفكر في هذه المواعيد ، ويقابلها بما سينيله للامير ، والجميع منتظرون مـا سيصدر من اوامر المولى ، تقدّم غانم ، وبصوت جرحته نبرة الحزن ، والتجرّد ، والتضحية ، قال :

— وانا اقيم منذ اليوم رهينةً بين يدي مولانا « الباشا » يصنع بي ما شاء.

ثم التفت الى الامير بشير وأعوانه ، وقال مجيباً عما ظهر على وجوههم من الاستغراب :

— لم يبقَ لي من رغبة في العودة الى البلاد ، وقد فقدت أملي الوحيد في قصر الشربين !

فتقدَّم منهُ الامير ، وقال هامساً :

— وبدور ؟

فرفع غانم الى السماء عينين شاخصتَين ، جالت بين جفونهما عبرات حارَّة بلَّلت الاهداب وارشكت ان تسقط . فردَّها خجلًا ، وقال :

— يفعل الله ما يشاء !

ثم التفت الى الباشا ، وتابع :

— اصنع ما تريد ، مولاي ، فانا حاضر .

عند ذاك رضي الباشا بغانم رهينةً ، على ان يرسل الامير ما وعد بهِ من الرهان بعد ثلاثة ايام . ثم خلع على مولى لبنان خلعة الولاية ، وزوَّده بالدعاء ، وامر بجيش يرافقه ، فيمهد امامه العقبات ويطهِّر طريقه من العصاة ، ويوطِّد اركان ولايته على أساس القوَّة والعدل .

فقبَّل الامير يد الجزَّار ، ورجا من حلمه وعطفه ان يرأف بغانم ، ويشمله دائمًا بعنايته ، وهو المولى الساهر على راحة الجميع ، ممَّن لا يحتاج الى توصية او تذكير .

ثم خرج في اصحابه مع غانم فودَّعوه . والتفت اليه الامير شاكرًا ، واعدًا اياه ان يذهب عند وصوله فيزور ضريح الشيخ الجليل ويكرِّم ذكراه حاملًا اليه احترام غانم . ثم يسير الى قصر بعذران فيسلِّم على الامير جهجاه ، وعلى امرأته ، وعلى بدور ، فيطمئنهم الى حالة غانم . وبعد ان اخذ من هذا الوعد الاكيد بمواصلة التحاريز ، وبالاجتهاد في التخلُّص من الاستسلام للحزن والاسف ، وبالتفكر في المستقبل الذي سيكون حسناً بعون الله ، قبَّله بحرارة ووعده ان يبعث اليه اسبوعاً فاسبوعاً بكل ما يجدّ من الاخبار . وسيكون الرسول

بينهما فرحات الامين المخلص .

اما هذا فلم يقوَ على وداع سيّده ، بل سار جانباً محدودب الظهر ، وقد علا نشيجه ، واحمرّت عيناه ، وترمرمت شفتاه ، فلم يقدر الّا على القول : « الى الاسبوع القادم ! »

* * *

لم يجاوز موكب الامير بشير حدود صيدا ، حتى ظهرت له طلائع حزبه من اللبنانيين المخلصين ، وقد ركبوا خيولهم الاصيلة ، واعتقلوا رماحهم اللدنة وارتدوا افخر ملابسهم ، وتسلّحوا بأجمل اسلحتهم ، وتجمهروا من كل صوب لاستقبال اميرهم المحبوب . شاهد متقدّمو الفرسان رجال الامير ، فنكصوا على اعقابهم ، يحملون الى الامير جهجاه ، قائد الجيش اللبناني ، تلك البشرى المنعشة .

وما هي دقائق حتى تشاهد الموكبان ، فخرقت الجوّ زراغيد الفرح ، وتلاعبت السنة الرماح في الهواء ، ولمعت السيوف خاطفةً الابصار ، وعلا صهيل الخيول مجيبة نداء فرسانها . فكانت ساعة فرح وسرور قلّما عرفتها العساكر الّا بعد الانتصارات الباهرة . وقد أثّرت مظاهر هذا الاخلاص الصافي في فؤاد الامير ، فكان ينظر بحنوّ الى رجاله ، ويندفع نحوهم بكل جوارحه ، حتى انه ارتمى بين يدي الامير جهجاه يعانقه باسماً ، باكياً ، من شدّة الفرح والتأثر . وكان الامير جهجاه لا يملك عبراته . ولم يترك معانقة الامير ، حتى جالت عيناه بين حاشيته باحثتين سائلتين . ففهم الامير قصده وقال :

— انه لا يزال في عكا ! وقد فضّل البقاء هناك ، اذ لم يبقَ لهُ من امل في قصر الشربين !

ثم مسح عينيه بطرف كوفيته . فحنى الامير جهجاه رأسه ، ولم يتكلّم خوف ان يتفجر حزنه فينغّص على اميره فرح الوصول الى بلاده .

على ان الامير بشير لم يدعه في تلك الحالة ، فاخذ يسأله بالتفصيل عن وفاة الشيخ بو غانم ، وعمّا قاسوه جميعاً من ضروب العذاب . فكان الامير جهجاه يروي تلك المصائب ودموعه تهمي ، وصوته يتهدّج ، فتجاوبه زفرات

الحاضرين . وقد سكتت الزراغيد ، واركزت الرماح ، واغمدت السيوف ، واشترك الكل صامتين في سماع تلك الحوادث كانهم يحضرون جميعاً مأتم الشيخ بو غانم .

ثم عزّى الامير بشير الحاضرين راجياً من الله ان تكون تلك الرزايا خاتمة احزانهم . وكانت الخيل قد استراحت فأمر بالركوب . فساروا وقد عاد الفرح يحمل الفرسان ، الّا الاميرَين وفرحات ، فعادوا الى الاناشيد والاهازيج ، والمسايفة وضرب الجريد .

عند المساء وصل الموكب الى دير القمر ، فترجّل الامير وفرسانه في باحة السراي الفسيحة . وسار توّاً مع رجاله الى كنيسة سيّدة التلّة ، يشكرون لسيدة الديرتين عنايتها بهم ونعمها العديدة عليهم ، ويطلبون معونتها مجدّداً ، ولم تعتد ان ترفضها . وبعد ان تباركوا جميعاً ، دروزاً ونصارى ، بتقبيل هيكلها . ساروا يتمّمون واجباً مقدّساً ايضاً ، فصعدوا الى قصر الشربين مع بعض رهبان الانطوش . وهناك ، امام ذاك القبر الحقير بظاهره ، الكبير بما ضمّ بين صُفّاحه ، ركع الامير وحاشيته ، يقدّمون لشهيدهم واجب الاحترام والاكرام ، ويطلبون لغانم بركة جدّه ، ويصلّون عن نفس الميت بيتاً من المسبحة كان يتلوه الامير فيردّد عليه جميع الحاضرين بصوت ملؤه الايمان والتقوى .

* * *

وفي صباح اليوم الثاني دخل الامير دوائر سرايته يتفقّد شؤون الرعايا . وينظر فيما تجمّع لديه من الشكاوى ، والدعاوى ، والمعاريض . ويستقبل وفود المهنّئين ، ومقدّمي الخضوع من جميع الجهات .

وكان لا يزال عليه فرضٌ آخر وعد غانماً باتمامه ، وهو الذهاب الى بعذران ليحيّي الست سعدى ، وبدور ، ويطمئنهما الى حالة وحيدهما غانم . فعزم على القيام بذلك في القريب العاجل . وبعد ثلاثة أيام كان على الطريق مع مضيفه الامير جهجاه ، ومدبّره الشيخ سلّوم الدحداح ، وقد ترك في دير القمر اخاه الامير حسن ، والشيخ بشير جنبلاط .

(لها بقية)